سورة الشمس[1]

حول السورة:

١. **عدد آياتها:** خمس عشرة آية.

٢. **موضوعاتها:** الاتعاظ بالآيات، والتحذير من تكذيبها.

وذلك أن الأقسام الإحدى عشرة التي بدئت بها السورة، التي تكاد تشكل نصفها، كلها في الآيات التي يراها الإنسان، وختمت بالنفس المخاطبَة بذلك، ثم ذكر بعدها نموذجًا على جحد الحق وردّ الآيات البينة الظاهرة النافعة، وهم قوم صالح، وآيتهم الناقة، وما تبع ذلك من عذابهم على طغيانهم وتكذيبهم، وبهذا نلحظ التناقض والتضاد ظاهرًا في هذه السورة، فهم قد كذبوا في حين كان الأولى أن يصدقوا، ولأجل إظهار هذا المعنى فقد كثر الطباق (التضاد) في السورة، يقول ابن عاشور: " وفي هذه الآيات مُحسّن الطباق غير مرّة فقد ذكرت أشياء متقابلة متضادة مثل الشمس والقمر لاختلاف وقت ظهورهما، ومثل النهار والليل ، والتجلية والغشي، والسماء والأرض، والبناء والطحو، والفجور والتقوى، والفلاح والخيبة، والتزكية والتدسية"[2].

٣. **مناسبة السورة لما قبلها.**

لما ختمت سورة البلد بنهاية الظالمين الذي جحدوا حقوق الضعفاء، وحق ربهم، وذُكر مآلهم الناري (عليهم نار مؤصدة)، ناسب أن تفتتح السورة هنا بما يلفت الأنظار إلى عظم نعيم الله وفضله، في كل الأزمنة (ليلاً ونهارًا)، والأمكنة (السماء والأرض)، والتذكير بمآل المكذبين بذلك من الأمم السابقة.

ولأبي حيان توجيه آخر في تناسب السورتين، حيث يقول: "ولما تقدّم القسم ببعض المواضع الشريفة وما بعدها ، أقسم هنا بشيء من العالم العلوي والعالم والسفلي ، وبما هو آلة التفكر في ذلك، وهو النفس، وكان آخر ما قبلها مختتماً بشيء من أحوال الكفار في الآخرة، فاختتم هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا، وفي ذلك بمآلهم في الآخرة إلى النار، وفي الدنيا إلى الهلاك

---

(١) ألقي هذا الدرس في جامع الرحمن، بتبوك، يوم الاثنين الموافق ١٤٢٩/١٠/٢٠هـ، بعد صلاة العشاء.

(٢) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٢٨٣).

المستأصل"[1].

وقد يكون من المناسبة أيضًا أنّ آخر كلمة ختمت بها البلد هي (النار المؤصدة)، وهي مصدر الحرارة الهائل يوم القيامة، وكذلك بدئت السورة هنا بالشمس وهي مصدر الحرارة الهائل في الدنيا، ولكن ما ذكر هناك نقمة، و ما ذكر هنا نعمة، في إشارة أن من شكر النعمة نجا من النقمة، والعكس صحيح.

٤. مناسبة المقطع للمطلع.

بدئت السورة بالآيات والآلاء، وختمت بالتدمير والتسوية، والعذاب، وفي ذلك تناسب من حيث أن من يعتبر بالآيات، ويشكر النعم ينجو من العذاب بإذن الله، ومن ينكر ذلك، ويكفر به، فمصيره العذاب والتدمير.

كما في ذلك وجه آخر، وهو أن المذكور في المطلع من دلائل القوة والقدرة، وكذلك ما ذكر في المقطع هو من آثار تلك القوة والقدرة، يقول البقاعي: "وقد رجع آخرها على أولها بالقسم وجوابه المحذوف الذي هو طبع النفوس على طبائع مختلفة والتقدم إليهم بالإنذار من الهلاك، ونفس القسم أيضاً فإن من له هذه الأفعال الهائلة التي سوى بين خلقه فيها وهذا التدبير المحكم هو بحيث لا يعجزه أمر ولا يخشى عاقبة "[2].

(١) تفسير البحر المحيط - (ج ١٠ / ص ٤٨٦).

(٢) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٤١).

ثانيًا: التحليل الدلالي للآيات:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾

١. مجيء القسم هنا بأحد عشر قسمًا يدل على عِظم المُقسم عليه، وهي: الشمس، وضحاها، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، وبناءها، والأرض، وطحوها، والنفس، وتسويتها، وقد نظرنا في عدّ ذلك إلى العطف، لدلالة المغايرة، يظهر ذلك من قول الطبري: "ومعنى الكلام: أقسم بالشمس، وبضحى الشمس"[(١)].

٢. الغرض من القسم بهذه المخلوقات العظيمة هو "تأكيد الخبر، والمقصود بالتأكيد هو ما في سَوق الخبر من التعريض بالتهديد والوعيد بالاستئصال"[(٢)].

٣. الملحوظ في هذه الأقسام بدءها بالنور وأعظم أجزاء ظهوره، وهو الضحى، وكذلك الباقي كله يدل على الضياء والفسحة، والعلو والسعة، ولا يستثنى من ذلك إلا الليل، مما يشعر بوضوح الهداية والحق لمن أراده.

٤. العلاقة بين المُقسم به والمقسم عليه تتضح في ذِكْر الفجور والتقوى عقب ذكر أسباب النور والهداية، فإن ما ذُكر من أقسام دالة على ذلك يُشعر بوضوح الحق، وبيان طريق الهداية والغواية، ولهذا ذكر الطريقان بعدها: الفجور، والتقوى، الفلاح والخيبة، والتزكية والتدسية.

٥. تقديم الإقسام بالشمس لأنها تجمع بين كونها مصدرًا للنور، وكونها عالية رفيعة، والناس مجبولون على الاستدلال بوضوح الأمر بالشمس فهم يقولون: الأمر واضح كالشمس في رابعة الناس.

٦. عطف الضحى عليها دليل على أنه جزء قائم برأسه، يصلح أن يُقسَم به.

٧. مع أن الضحى أثر من آثار الشمس؛ إلا أنّ القَسم به بعدها يدل على عظم شأنه، وهو مِنْ الأوقات المباركة من جهة، وهو أيضًا أظهر صور النور، فهو أقوى سلطان الشمس، وأقوى صور تأثيرها في إزاحة الظلام.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا﴾

١. القسم بالقمر هو القسم الثالث بعد الشمس وضحاها، والقمر من العالم العلوي المنير، والقمر رمز

---

(١) تفسير الطبري – (ج ٢٤ / ص ٤٥١).

(٢) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٢٨٠).

دائم للاهتداء في ظلمات الليل، وبهذا ذكر مصدر نور الليل، ومصدر نور النهار، يقول البقاعي: "ولما افتتح بذكر آية النهار، أتبعه ذكر آية الليل فقال: ﴿والقمر﴾، أي: المكتسب من نورها"[1].

٢. تقييد القمر بحالة معينة هي تلوِّه للشمس في قوله تعالى: ﴿إذا تلاها﴾؛ لبيان أنّ القمر خلف ضوؤه ضوء الشمس بعد غيابها، فهو نور عقب نور، حتى مع وجود سبب الظلمة وهو الليل، ولا يكون ذلك كذلك إلا إذا كان القمر بدرًا، فإنه في هذه الحالة يطلع عقب غياب الشمس، وهذا من دقة اللفظ القرآني، ويذكر الطبري أن ذلك "في النصف الأوّل من الشهر، إذا غُربت الشمس، تلاها القمر طالعًا"[2]، و"عن قتادة... يتلوها صبيحة الهلال، فإذا سقطت الشمس رُؤي الهلال"[3]، والذي يظهر من لفظ التلو هو المتابعة السريعة، ولا يكون ذلك واضحًا إلا في الأيام البيض.

٣. في لفظ التلو ما يدل على حلول شيء مكان شيء، وقيامه بدوره، وهذا ما يحصل للقمر في الحالة التي ذكرناها، ولو أُريد مجرد التعاقب لقيل: أعقبها، أو خلفها، أو غير ذلك، وفي ذلك "إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجّه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيّراً بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن"[4].

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾

١. القسم بالنهار مناسب للقسم بالشمس؛ لأنه يمثل حالة النهار، فلما أقسم بسبب النور، وهو الشمس؛ أقسم في مقابله بميدان ذلك النور، وهو النهار.

٢. تقييد النهار بالتجلية؛ لأن المراد: إذا جلى النهار الأرض، وهذا يعني قوة الضوء، وقد يكون المراد جلى الشمس، وهذا الذي يدل عليه ظاهر النص، وهذا يحتاج إلى دراسة ونظر من أهل الاختصاص، إذ كيف يجلي النهار الشمس، بمعنى يوضحها ويظهرها، ويمكن توجيه ذلك بما أشار إليه البقاعي من اعتبارات، "الطول والقصر، والصحو والغيم، والضباب والصفاء والكدر"[5]، ولكن ما يزال التساؤل واردًا، أليست الشمس هي التي تجلي النهار، لا العكس؟ ولكن إذا علمنا أن الفعل (جلى) يعني الكشف عن شيء كان مخفى، فربما أسهم ذلك في توجيه المعنى، يقول ابن فارس: "(جلو) الجيم

---

(١) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٣٥).

(٢) تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٤٥٢).

(٣) تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٤٥٢).

(٤) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٢٨٠).

(٥) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٣٥).

واللام والحرف المعتل أصلٌ واحد، وقياسٌ مطّرد، وهو انكشاف الشيء وبروزُه،... ورُجلٌ أجْلَى، إذا ذهب شَعْر مقدّم رأسِه"[1]، وعليه فقد يكون في ذلك إشارة إلى حركة الأرض في مقابل حركة الشمس، وبما أن الشمس موجودة وهي مصدر النور، وكان يحجبها عن إحدى الجهتين الجهة الأخرى، كان دورانها وتعرضها للشمس هو السبب في إظهار نور الشمس[2]، أما الليل فذكر معه الغشي الذي هو ضد التجلية على ما ذكرنا أيضًا، والله أعلم.

٣. اشتمل هذا القسم على أضواء الشمس الثلاثة: الأصلية (شعاعها، ونهارها)، والمنعكسة (قمرها)، وفي هذا إشارة إلى العناية بأمر النور في هذه السورة، وهو يرمز إلى الهداية ووضوحها، ومع هذا يكفر بها مَنْ كفر.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾

١. الإقسام بالليل جاء مناسبًا لما يقابله من ذِكر القمر؛ لأن قيمة الضوء لا تظهر إلا بعد الإظلام، وهو المذكور هنا.

٢. وتقييد الليل بالغشي للتدليل على شدة ظلمته، وفي إسناد ذلك إليه ما يشعر بأن الليل يغشى الأرض، وهذا ظاهر، أو يغشى الشمس، وهذا يحتاج إلى تأمل، لأنه يغشى جزءًا من الأرض، هي تكون في الجزء الثاني، وهو ما اختاره الطبري فقال: "والليل إذا يغشي الشمس، حتى تغيب فَتُظْلِمُ الآفَاقُ"[3].

٣. "ولم يعبر بالماضي كما في النهار لأن الليل لا يُذهب الضياء بمرة، بل شيئاً فشيئاً، ولا ينفك عن نور بخلاف النهار، فإنه إذا أبدى الشمس ولم يكن غيم ولا كدر جلى الشمس في آن واحد ، فلم يبق معه ظلام بوجه"[4]، وذلك يدل على أن الليل هو الأصل، والنهار هو الفرع ومن دلائل ذلك: تقديم ذكر الليل قبل النهار في القرآن، سميت سورة بالليل، ولم يكن ذلك للنهار، والنهار مسلوخ من الليل بنص

---

(١) مقاييس اللغة - (ج ١ / ص ٤١٧).

(٢) يقول الطبري: "وكان بعض أهل العربية يتأوّل ذلك بمعنى: والنهار إذا جلا الظلمة، ويجعل الهاء والألف من جلاها كناية عن الظلمة، ويقول: إنما جاز الكناية عنها، ولم يجز لها ذكر قبل، لأن معناها معروف، كما يعرف معنى قول القائل: أصبحت باردة، وأمست باردة، وهبَّت شمالا، فكني عن مؤنثات لم يجر لها ذكر، إذ كان معروفًا معناهنّ، والصواب عندنا في ذلك: ما قاله أهل العلم الذين حكينا قولهم، لأنهم أعلم بذلك، وإن كان للذي قاله من ذكرنا قوله من أهل العربية وَجْهٌ." انظر : تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٤٥٢).

(٣) تفسير الطبري - (ج ٢٤ / ص ٤٥٣) .

(٤) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٣٥).

القرآن.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾

١. الإقسام بالسماء هنا جاء موافقاً للتناسب السابق، فإن الشمس في السماء.

٢. عطف بناء السماء عليها يعني قسمًا آخر به، فهي مقسم بها، وبناؤها مقسم به أيضًا، وجعل بناءها قسمًا برأسه فيه إشارة إلى عظم شأن هذا البناء، وأنه مِنْ أظهر دلائل القدرة الربانية فيها.

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾[1]

١. الإقسام بالأرض مناسب لضده، وهو السماء.

٢. عطف طحو الأرض، دليل على عجيب القدرة فيه، حتى كان أهلاً أن يُقسم به.

الطحو: هو تسوية الأرض، والفرق بينه وبين الدحو ﴿دحاها﴾ الوارد في سورة النازعات، قد يكون مدخله أن الطاء فيها من صفات القوة ما ليس في الدال، وهذا يعني أن الطحو هنا أعظم. "(طحو) الطاء والحاء والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على البسط والمدِّ، من ذلك الطَّحْو وهو كالدَّحْو، وهو البَسْط"[2]، وقال أيضا: "(دحو) الدال والحاء والواو أصلٌ واحد يدلُّ على بَسْطٍ وتمهيد"[3]، وأظن أن الفرق بينهما أن الدحو هو التسوية ويشترك معه لفظ الطحو في هذه الدلالة، ويزيد الطحو بأن فيه دلالة على التوسع وفي كل اتجاه، "على وجه هي فيه محيطة بالحيوان كله ومحاط بها"[4]، وبهذا يكون الطحو فيه زيادة وتوسيع، لذا ناسب أن يكون القسم به منفصلاً عن الأرض.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

---

(١) صفات الأرض في القرآن تتضح من الآيات التالية: ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٣]، ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥]، ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: ٦].

(٢) مقاييس اللغة - (ج ٣ / ص ٣٤٨).

(٣) ١-مقاييس اللغة - (ج ٢ / ص ٢٧٥).

(٤) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٣٦).

١. الإقسام بالنفس بعد هذا كله يدل على عظم شأنها، وأنها خليقة بأن يتدبر الإنسان فيها، وهي بين جنبه، فصار هناك تناسب؛ بدءاً بالعالم العلوي، ثم الأرضي، ثم النفسي، وقد قيل:

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وتستنكر
وتحسب أنك جزء صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

٢. تنكير ﴿نفس﴾ على خلاف ما سبق؛ قد يشير إلى تعدد النفوس وتنوعها، وأنّ في كل نفس من عجائب القدرة ما يدعو للتأمل والاعتبار بها، فكيف بها جميعًا، وليس كذلك في بقية الأقسام؛ لأنها أمور معلومة محددة غير متعددة، وقد يكون "للتفخيمِ على أنَّ المرادَ نفسُ آدمٍ عليه السلامُ، أو للتكثيرِ وهو الأنسبُ للجوابِ"(١).

٣. عطف التسوية على النفس لأنها من أظهر صور القدرة فيها، لذا أقسم به سبحانه مع النفس، وفي هذا لفت لنظر الإنسان لقيمة هذه التسوية، فبعض الناس لا يشعر بهذه النعمة، ولا يقدرها، إلا إذا رأى معاقًا أو ناقصًا في الخلق، عندها يدرك نعمة التسوية.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾

١. بعد كل هذه الأقسام التسعة جاء ذكر الفجور والتقوى للنفس، وكأن في ذلك إشارة إلى ضرورة التأمل فيا سبق، فالخير والفضل من الله لك أيها الإنسان عظيم، فقد أنعم عليك بالنور والضياء، وما تقوم به حياتك، وأنعم عليك بالمكان الذي يتناسب مع معشيتك، وهيّأ لك الزمن المناسب للعمل (النهار)، والراحة (الليل)، ثم جعل الخيار لك لتسلك سبيل الخير أو الشر، ثم تتحمل تبعة ذلك.

٢. مجيء الفاء في ﴿فألهمها﴾ يُشعر بترتب ما بعدها على ما قبلها على ما بيّناه.

٣. ذكر مادة (الإلهام) هنا ﴿فألهمها﴾ يُشعر بأن ذلك مما فطرت عليه كل نفس، وأن ما يكون ضده يكون خلاف الفطرة، "ويطلق الإِلهام إطلاقاً خاصاً على حدوث علم في النفس بدون تعليم ولا تجربة ولا تفكير ...وإيثار هذا الفعل هنا ليشمل جميع علوم الإِنسان ، قال الراغب: الإِلهام: إيقاع الشيء في الرُوع ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى وَجهة الملأ الأعلى، ولذلك فهذا اللفظ إن لم يكن من مبتكرات القرآن؛ يكن مما أحياه القرآن، لأنه اسم دقيق الدلالة على المعاني النفسية وقليل رواجُ أمثال ذلك في اللغة قبل الإِسلام لقلة خطور مثل تلك المعاني في مخاطبات عامة العرب، وهو

(١) تفسير أبي السعود - (ج ٧ / ص ٢٠).

مشتق من اللّهْم وهو البلْع دَفعةً"[1].

٤. "تعدية الإلهام إلى الفجور والتقوى في هذه الآية مع أن الله أعلم الناس بما هو فجور وما هو تقوى بواسطة الرسل باعتبار أنه لولا ما أودع الله في النفوس من إدراك المعلومات على اختلاف مراتبها لما فهموا ما تدعوهم إليه الشرائع الإلهية ، فلولا العقول لما تيسّر إفهامُ الإنسان الفجور والتقوى ، والعقابَ والثواب"[2]، وفي ذلك إشارة إلى تناسب الفطر مع ما تدعو إليه الرسل .

٥. إسناد الفجور إلى النفس ﴿فجورها﴾ باعتبارها المختارة له.

٦. ذكر التقوى في مقابل الفجور فيه إشارة إلى أن التقوى هي التقيّد والالتزام بأمرِ الله، لأن الفجور يعني التعدي والتجاوز، ذلك أن أصل المادة دال على الخروج، يقول ابن فارس: "(فجر) الفاء والجيم والراء أصلٌ واحدٌ، وهو التفتح في الشَّيء، من ذلك الفَجْر: انفِجار الظُّلمة عن الصُّبح، ومنه: انفجَرَ الماء انفجاراً: تفتَّحَ. والفُجْرَة: موضع تفتُّح الماء، ثمَّ كثُر هذا حتَّى صار الانبعاثُ والتفتُّح في المعاصي فُجوراً، ولذلك سمِّي الكَذِب فجوراً. ثم كثُر هذا حتَّى سمِّي كلُّ مائلٍ عن الحقِّ فاجراً، وكلُّ مائلٍ عندَهم فاجر"[3].

٧. عطف التقوى على الفجور بالواو ﴿فجورها وتقواها﴾ يؤذن بأن النفس للأمرين جميعًا، وهي التي تختار، ولو قيل: (أو)؛ لكانت ملهمة واحدة منها فحسب.

٨. تقديمُ الفجورِ على التقوى، قيل لمراعاةِ الفواصلِ[4]، وأفضل من هذا أن يقال: إن السياق لحث النفس للحذر من الانحراف عن الفطرة، لأن الدلائل الكونية والعقلية ترشد إلى الصواب، فكان إعلام النفس بما يضرها أولى مما ينفعها في هذه الحالة، ويمكن أن يكون السر في ذلك أن السياق كان لوعظ النفس الكافرة المُعرضة، فناسب تقديم ما يخصها، أو لأن أكثر النفوس تميل إلى ذلك، لأنها أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، يقول ابن عاشور: "وتقديم الفجور على التقوى مراعىً فيه أحوال المخاطبين بهذه السورة وهم المشركون، وأكثر أعمالهم فجور ولا تقوى لهم، والتقوى صفة أعمال المسلمين وهم قليل يومئذ"[5].

---

(١) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٢٨٢).

(٢) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٢٨٢).

(٣) مقاييس اللغة – (ج ٤ / ص ٣٧٩).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود – (ج ٧ / ص ٢٠).

(٥) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٢٨٢).

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾

١. دخول ﴿قد﴾ على ﴿أفلَح﴾ للتدليل على تأكيد الفلاح لمن سلك طريقه.

٢. ذكر مادة الفلاح ﴿أفلَح﴾ لما في الفلاح من معاني الخير، لأن الفلاح يعني مجيء النظم على هذه الصورة دون الشرط بأن يقال: من زكى نفسه فقد أفلح، لما في النظم الكريم من التشويق بذكر ما ترغب فيه النفوس السوية، وذلك بقوله: ﴿قد أفلح﴾ فتتشوق النفس لما يوصلها لهذا الفلاح، فيأتي قوله: ﴿من زكاها﴾ فيرسخ في النفس ويستقر.

٣. ذكر الموصول العام ﴿مَنْ﴾ ليشمل كل من هذا فعله مِن صغير وكبير، وذكر وأنثى، قليل وكثير.

٤. ذكر التزكية مع النفس فيه دليل على أنه طريق فلاحها، وإذا علمنا أن التزكية تعني: النماء والطهارة[١]، هذا يدل على أنّ المطلوب هو تطهير النفس من كل ما يدنسها، والعمل على زيادتها ونمائها بالخير، فهما أمران: حفظ وحياطة، وتنمية وزيادة.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

١. "تكرير ﴿قد﴾ فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونه، والإيذان بتعلق القسم به أصالة"[٢]، بمعنى أن الحكم بخيبة من دسّ نفسه أمر قائم برأسه يستحق الإقسام عليه.

٢. ذكر الخيبة في مقابل الفلاح لإيضاح الفرق بين المآلَين؛ تنفيرًا للنفوس من هذا المصير.

٣. النص على مادة الخيبة خصوصًا؛ لأنها تعني كما يقول ابن فارس: "عدم فائدةٍ وحِرمانٍ"[٣]، وهذا كما نرى مناقض لمعنى الفلاح الذي هو كل خير، كما أن هذه المادة توحي بسعيٍ وتعبٍ دون فائدة، بل قد يحصل العكس.

٤. "قُدّم الفلاح على الخيبة لمناسبته للتقوى، وأردف بخيبة من دسى نفسه لتهيئة الانتقال إلى الموعظة بما حصل لثمود من عقاب على ما هو أثر التدسية"،[٤] وقد يكون سر ذلك أن السياق هنا تحول إلى التوجيه لما ينبغي أن يكون، وفي هذه الحالة يكون تقديم المرغوب الممدوح أولى من تقديم المذموم، ليكون ذلك أكثر حفزًا للأخذ بالممدوح.

---

(١) مقاييس اللغة - (ج ٣ / ص ١٢).

(٢) روح المعاني.

(٣) مقاييس اللغة - (ج ٢ / ص ١٨٧).

(٤) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٢٨٣).

٥. مجيء الموصول عاما ﴿مَنْ﴾ سبق ذكره.

٦. مادة التدسية ﴿دسّاها﴾ في مجملها تدل على "خَفاءٍ وسَتْر، يقال دَسَوْتُ الشّيءَ أدْسُوه، ودسَا يدسُو، وهو نقيض زَكَا"[١]، وذلك لأن التزكية فيها تنمية وتطهير وإظهار، والتدسية ضدها تمامًا، فهذا يعني أنَّ مَنْ لم يأخذ بمنهج الله فقد غمط هذه النفس وأخفاها وأهانها، ومن المعنى أيضا أنه حال بينها وبين فعل الخير، وذلك لأن أصل فعل دسّ: إذا أدخل شيئاً تحت شيء فأخفاه،[٢] ولكن السؤال ما مناسبة ذلك للسورة ولقصة ثمود؟.

قد يكون جواب ذلك، أنّ ما ذكر من الآيات والدلائل في أول السورة، وما حُمِل من إشارات الضياء والنور والهداية؛ فيه إرشاد إلى طريق زكاء النفس بالتأمل والاعتبار، والتدبر والتفكر، ثم الإيمان والتصديق، ومَنْ أغلق عينيه، وعطَّل عقله عن كل ذلك؛ فكأنه دسَّ هذه النفس وأخفاها عن طريق سعادتها، وثمود خير مثال على ذلك، فقد كانت آيتهم ظاهرة (الناقة)، ونعم الله عليهم باهرة، ومع هذه اختاروا الخيبة على الفلاح. والله أعلم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾

١. ذكر التكذيب من أعمالهم لأنه أساس كل بلية، وهو صورة رد الحق، كما أن فيه تقبيحًا لفعلهم، وذلك لظهور آيتهم، فكان حقها أن تصدق، لا أن تكذب.

٢. "أنث فعلهم لضعف أثر تكذيبهم؛ لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه، لوضوح آيتهم وقبيح غايتهم، وما لهم بسفول الهمم وقباحة الشيم"[٣].

٣. "وخصهم لأن آيتهم مع أنها كانت أوضح الآيات في نفسها هي أدلها على الساعة، وقريش وسائر العرب عارفون بهم لما يرون من آثارهم، ويتناقلون من أخبارهم"[٤].

٤. النص على الطغيان بهذه الصيغة (طغوى) دليل على أنه قد بلغ الغاية في الشناعة والسوء.

٥. ذكر مادة الطغيان لأنها الأعجب في مثل حالتهم والسياق الوارد بشأنهم في هذه السورة، وذلك

---

(١) مقاييس اللغة - (ج ٢ / ص ٢٢٦).

(٢) انظر: التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٢٨٣).

(٣) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٣٩).

(٤) نظم الدرر للبقاعي - (ج ٩ / ص ٤٣٩).

أن مادة طغى تدل على التجاوز والكبر، بل قال بعضهم: "والطغيان: فرط الكِبر"[1]، وكيف يكون ذلك والآيات المذكورة في القَسم تدل على عظم الخالق وضعفهم، فكيف بعد هذا يتكبرون، وهم الضعفاء المهازيل!

﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾

١. في ذكر أداة الشرط ﴿إذ﴾ تأكيد على حصول ذلك منهم، لأنه لِما مضى من الزمن، يقول البقاعي عن تكذيبهم: "دل عليه بقوله: ﴿إذ﴾ أي: تحقق تكذيبهم أو طغيانهم بالفعل حين ﴿انبعث أشقاها﴾، أي: أشد ثمود شقاء، وهو عاقر الناقة للمشاركة في الكفر والزيادة بمباشرة العقر، وهو قدار بن سالف"[2]، ويبدو أن هذا الظرف (إذ) مرتبط ومتعلق بالفعل"﴿طغواها﴾؛ لأن وقت انبعاث أشقاها لعقر الناقة هو الوقت الذي بدت فيه شدة طغواها، فبعثوا أشقاهم لعقر الناقة التي جُعلت لهم آية، وذلك منتهى الجُرأة"[3].

٢. يدل ذكر الانبعاث ﴿انبعث﴾ على خروجه من بين نفر كثيرين، يقول ابن فارس: "(بعث) الباء والعين والثاء أصلٌ واحد، وهو الإثارة"[4]، وهذا يشير إلى سوء حال هذا الرجل، لأن الموقف يوحي بعدم جرأتهم على ذلك، فكأنهم كانوا ساكنين، فكان خروجه لهذه الجريمة انبعاثًا وإثارة.

٣. مجيء الصيغة على صورة المطاوعة ﴿انبعث﴾ للإشعار بأن غيره كان يؤزه ويحركه ويدفعه.

٤. ذكر صفة المنبعث بأنها الشقاء في قوله تعالى: ﴿أشقاها﴾ فيه بيان لسوء صنيعه، وعظم جريمته، كما فيه إيماء إلى سوء مصيره ومآله.

٥. إسناد هذا الأشقى إلى ثمود لا إلى القوم أو الرهط بأن يقال (أشقاهم)؛ للتدليل على أنه بلغ الغاية في الشقاء على المستوى الأوسع وهو القبيلة، فمن باب أولى مَنْ دونها.

٦. مجيء الكلمة بصيغة التفضيل ﴿أشقاها﴾ للإشعار بأنهم مشتركون في الشقاء، وإن كان مَنْ تولى العقر هو أكثرهم شقاء.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾

---

(١) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٢٨٤).

(٢) نظم الدرر للبقاعي – (ج ٩ / ص ٤٣٩).

(٣) التحرير والتنوير – (ج ١٦ / ص ٢٨٤).

(٤) مقاييس اللغة – (ج ١ / ص ٢٥١).

١. مجيء الفاء ﴿فقال﴾ تدل على ترتب هذا القول على انبعاث الأشقى، فكأنه التحذير الأخير لهم.
٢. النص على ذكر قول الرسول صالح عليه السلام ﴿فقال﴾ لإظهار ما تمَّ وعظهم به، ليكون المطلع على هلاكهم عارفًا بما تم نصحهم به.
٣. تقييد القول بأنه ﴿لهم﴾ يُبين تأكّد توجيه هذا النصح والتحذير لهم، فكأنهم بهذا قد وصلوا إلى مرحلة يسمعون فيها التحذير ولا يبالون به، فقوله ﴿لهم﴾ ليعلم حالهم ذاك، والاهتمام بإشعارهم بأن القول يخصهم.
٤. ذكر صالح عليه السلام بصفة الرسالة ﴿رسول الله﴾ دون اسمه العلم؛ لأن العناية هنا متوجهة إلى المهمة التي يقوم بها، وهي هنا الرسالة، وما يترتب عليها من النصح والتحذير، كما أن في النظم الكريم إضافة الرسول إلى الله، لتذكيرهم بذلك، وإشعارهم بخطورة ما يقدمون عليه، وأنهم بهذا يغضبون الله، لأن الرسول يقوم بتأدية ما أمر به، وهذا لا يكون مع العَلَم (صالح)، يقول أبو السعود: "عبرَ عنه بعنوانِ الرسالةِ إيذاناً بوجوبِ طاعتِه، وبياناً لغايةِ عتوِّهم وتماديهم في الطغيانِ، وهو السرُّ في إضافةِ الناقةِ إلى الله تعالَى في قولِه تعالَى: ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾"[1].
٥. نصبت ﴿ناقة﴾ على التحذير، والمعنى: احذروا ناقة الله وسقياها، فعلمنا بهذا أن المحذر منه أمران: الناقة، وسقياها، وفي التحذير من لفت النظر إلى الحرص على الحذر من كل ما يؤذيها مالا يخفى.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾

١. مجيء الفاء في ﴿فكذبوه﴾ دليل حصول هذا الأثر على نصيحة رسول الله لهم، وهذا هو الأمر الأعجب، إذ المتوقع منهم السمع والإذعان لأنهم يعرفون رسولهم، ويرون آية رسالته بينهم (الناقة).
٢. ذكر التكذيب ﴿فكذبوه﴾ دليل على عدم توفيقهم، وشدة متابعتهم لهواهم، لأن الدلائل تدفع إلى التصديق لا إلى التكذيب، فنص عليه هنا لأنه الحالة الأعجب والأغرب، ولتكون إحدى مسوغات عذابهم.
٣. تكرار الفاء مع ﴿فعقروها﴾ للتدليل على أنّ العقر حالة مستقلة أعقبت التحذير ليزداد التعجب من حالهم، لأن عقرهم لها يخالف العقل من جهات: أنها آية نبيهم، وأنها سبب رزقهم، وأن نبيهم حذرهم أن يمسوها بسوء.

---

(١) تفسير أبي السعود (ج ٧/ ص ٢٠).

٤. ذكر العقر ﴿فعقروها﴾ لأنه الأنسب لفعلهم، إذ العقر هو: "الجَرْح أو ما يشبه الجَرح من الهَـزْم في الشيء"[١]، وعقْر الناقة: ضرب قوائمها لتسقط وبعد ذلك تُنحر، فكان في ذلك إشـارة إلى أدنى صور إيذائها المؤدية إلى فنائها.

٥. إسناد العقر إلى المجموع مع أن المنبعث لذلك واحد، لبيان أنهم مشتركون معهم بالرأي والتأييد، أو بالسكوت وعدم المنع.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾

١. ذكر الفاء دليل على ترتب الدمدمة على فعلهم القبيح (التكذيب والعقر).

٢. ذكر مادة الدمدمة، وما في التركيب من تكرير للحروف، ما يصور عظم ما حل بهم العـذاب، يقول البقاعي: "﴿فدمدم﴾، أي: عُذِّب عذاباً تاماً مجلّلاً مغطياً مطبقاً مـستأصلاً، شـدخ بـه رؤوسهم، وأسرع في الإجهاز وطحنهم طحناً مع الغضب الشديد"[٢] قال الرازي: "والدمدمـة: تحريك البناء حتى ينقلب"[٣]، وبهذا ندرك أن أصل المادة (دمّ) يدل على التغطية، يقول ابن فارس: "(دم) الدال والميم أصلٌ واحد يدلُّ على غِشْيان الشَّيء، مِن ناحيةِ أنْ يُطْلَى به. تقـول دَمْـتُ الثَّوبَ، إذا طليتَه، أيَّ: صِبْغ، وكلُّ شيءٍ طُلِي على شيءٍ فهو دِمام. فأمّا الدّمدمة فالإهلاك. قال الله تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]. وذلك لِمَا غَشّاهم بـه مـن العـذاب والإهلاك"[٤]، فيكون المراد أن العذاب غشيهم وغطاهم وشملهم جميعا، وقد يكون ذلك مناسـبا لذكر التغشية مع الليل بعد النور والضياء، فعذابهم يشبه غشيان الليل، وتكرير الحروف (دمـدم) يدل على شدة العذاب وتكرره، وذلك لأنه كان صوتا، ورجفة.

٣. في مجيء حرف الجر ﴿على﴾، ما يشعر بتمكن العذاب منهم، وعلوه عليهم، يقـول البقـاعي: "ودل بأداة الاستعلاء على شدته وإحاطته فقال: ﴿عليهم﴾"[٥].

٤. في التعرض لوصف الربوبية هنا ﴿ربهم﴾ ما يشير إلى عظم جرمهم، وإلى شدة الغضب علـيهم،

---

(١) مقاييس اللغة – (ج ٤ / ص ٧٠).

(٢) نظم الدرر للبقاعي – (ج ٩ / ص ٤٤٠).

(٣) مفاتيح الغيب، تفسير الرازي .

(٤) مقاييس اللغة – (ج ٢ / ص ٢١٢).

(٥) نظم الدرر للبقاعي – (ج ٩ / ص ٤٤٠).

حتى إنهم لم يرحموا مع هذا الوصف الدال على الحفظ والرحمة، يقول البقاعي: "ودل على شدة العذاب لشدة الغضب بلفت القول بذكر صفة الإحسان التي كفروها، لأنه لا أشد غضباً ممن كفر إحسانه فقال : ﴿ربهم﴾ أي الذي أحسن إليهم فغرَّهم إحسانه فقطعه عنهم فعادوا كأمس الدابر"[1].

٥. النص على سبب الدمدمة وهو الذنب في قوله تعالى: ﴿بذنبهم﴾ فيه وعظ لغيرهم، ألا يفعلوا فعلهم، فيلقوا مثل مصيرهم، ولو لم يذكر ذلك لما فهم هذا الملمح، كما أن في ذكر الذنب دون التكذيب والعقر الذي سبق ذكره ما يبين أن كل ذلك من قبيل الذنب الذي تسحق صاحبه العقوبة، يقول أبو السعود :"والتصريحُ بذلكَ مع دلالةِ الفاءِ عليهِ للإنذارِ بعاقبةِ الذنبِ ليعتبرَ بهِ كلُّ مذنبٍ"[2].

٦. في ذكر التسوية ﴿فسواها﴾ مع عذابهم تناسب مع ذكر طحو الأرض، فكأنه قيل: إن القادر على طحو الأرض للعباد ليعشوا عليها، هو من سوّى بكم الأرض لأنكم لم تشكروا وتصدقوا، كما أن في ذكر التسوية ما يشير إلى شدة ما أصابهم حتى إنهم قد سُووا بالأرض، وتوجد معاني أخرى أشار إليها أبو السعود بقوله: "أي الدمدمةَ بينهُم لم يفلتْ منهُم أحدٌ من صغيرٍ وكبيرٍ أو فسوَّى ثمودَ بالأرضِ أو سوَّاها في الهلاكِ"[3].

﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾

١. نفي خوف العقبى جاء من باب تهويل العذاب الواقع بهم رغم قوتهم وجبروتهم، فإن كانوا يظنون أنهم قادرون على إخافة غيرهم، أو أن غيرهم يخاف بطشهم فلا يتعرض لهم، فالأمر مع الخالق القدير غير ذلك، خصوصًا مع تقدم ما يشير إلى القدرة والعظمة والملكوت والسيطرة في الأقسام المتعددة في أول السورة.

كما أن في ذلك إشارة إلى قوة الله وقدرته، فإن من المتعارف عليه عندهم الأخذ بالثأر، بعدما يصيبهم أحد بسوء، فبين سبحانه أن الأمر معه جلت قدرته على غير ما يظنون، "ويجوز أن يكون قوله: ﴿فلا يخاف عقباها﴾ تمثيلاً لحالهم في الاستئصال بحال من لم يترك مَن يثأر له فيكون المَثَل

---

(١) نظم الدرر للبقاعي – (ج ٩ / ص ٤٤٠).

(٢) تفسير أبي السعود – (ج ٧ / ص ٢١).

(٣) تفسير أبي السعود – (ج ٧ / ص ٢١).

كناية عن هلاكهم عن بكرة أبيهم لم يبق منهم أحد"[1] .

٢. ذكر مادة العقبى يشير إلى الآثار المترتبة على الفعل وهو هنا الدمدمة، فإذا كان المخلوق يخاف من عاقبة فعله، فالخالق ليس كذلك، وفي هذا من تهديد قريش مالا يخفى لأنهم أهل الحمية والثأر.

(١) التحرير والتنوير - (ج ١٦ / ص ٢٨٦).